التفكير اللساني عند ابن خلدون وعلاقته بعلم العمران

إعداد : أ .عمر لحسن
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة عنابة ـ الجزائر

1ـ مقدمة :

قد يتساءل أحد عن سبب الاهتمام بابن خلدون في عصرنا، وقد بلغت الدراسات اللسانية في العالم مستويات من التفكير تضاهي أكثر العلوم الإنسانية والتكنولوجية. غير أن هذا التقدم السريع جعلها تقيم قطيعة مع الدراسات اللسانية القديمة، وفي هذا الصدد يقول تشومسكي: «وفي المقابل، انقطعت اللسانيات الحديثة بطواعية عن النظرية اللسانية التقليدية وحاولت إنشاء نظرية لسانية بكيفية جديدة كل الجدة ومستقلة. ولم يهتم اللسانيون المحترفون عموما إلا قليلا بالإسهامات المقدمة إلى النظرية اللسانية من قِبَل التقليد الأوروبي السابق، واهتموا بمسائل مختلفة جدا، داخل نطاق ثقافي بعيد عن أن يجعلهم مدركين للمسائل التي أثارتها الدراسات اللسانية الأكثر قدما،

والتي أوصلت إلى النتائج المحققة إلى حدّ الآن ، وما زلنا إلى اليوم نجهل كثيرا إسهامات الماضي هذه أو ننظر إليها باستخفاف غير خفي »[1] .

ولم يكن العرب بمنأى عن هذا الموقف المجحف ، وذلك لأنهم انساقوا وراء منجزات اللسانيات المعاصرة الوافدة من الغرب - والمغلوب مولع بالغالب دائما- تاركين وراءهم تراثا عربيا زاخرا . ولهذا السبب فكرت في هذه المحاضرة أن ألقي الضوء على الإسهامات اللسانية لابن خلدون ، التي بقيت مجهولة رغم الدراسات والمقالات والكتب التي ألفت حوله. فكانت عبارة عن تأملات ونظرات في المباحث اللسانية عنده، وما قابلها من نظريات وآراء في اللسانيات المعاصرة، بمختلف مدارسها ومناهجها .

قد يرى البعض أنني مجحف في حق الرجل، بإقحامه في مجال هو بعيد عنه، مجال اللسانيات في القرن العشرين، وهو الذي عاش في القرن الخامس عشر ، لكن الذي جعلني أجرؤ على هذا الموقف أنّ أغلب الذين أرخوا له عدّوه متجاوزا عصره بكثير ، أو اعتبروه طفرة في الزمن، حيث يقول المسدي :«وكثيرا ما يشير الباحثون إلى غرابة ظهور ابن خلدون في فترة انحسار المد الحضاري العربي ، معتبرين أن المناخ الفكري الذي ساد طيلة القرن السابع والقرن الثامن ما كان يسمح

1- Noam Chomsky, la linguistique cartésienne, trad. par N. Delanoé et P. Sperber, ed. du Seuil, Paris 1969.

موضوعيا بظهور فكر متميّز على الصعيد الإنساني يتجاوز كل مكتسبات المعرفة البشرية الحاصلة قبله »[2] . ويقول باحث آخر : «ربما كان من الإنصاف بمكان أن نعترف [...] بأننا مجحفون في حق الرجل إذا ما أخذنا بعين الاعتبار كل ما تكتنزه هذه الشخصية العلمية الفذة من معارف أنسكلوبيدية جامعة وإحاطات علمية وإبستمولوجية واسعة ، على الرغم من العصر الذي وجد فيه ابن خلدون كان عصر وهن وضعف وضحالة في فضاءات الفكر والإبداع »[3] .

إن ما زاد اهتمامي بالجانب اللساني عند ابن خلدون أن أغلب الدارسين من الغرب والشرق نظروا إلى شخصيته من زوايا علمية متعددة، وعدّوه متعدد الاختصاص متشعب الاهتمامات، فهو تارة عالم اجتماع، وتارة فيلسوف ، وتارة مؤرخ، ذلك أن » مذهبه الفكري وأسلوبه الذي في حقيقته مزيج من علوم متعددة «[4] .

2 ـ عبد السلام المسدي ، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون ، دار سعاد الصباح ، الكويت / القاهرة ط 4 ، 1993 ، ص 152 .

3 ـ عبد الجليل مرتاض ، ابن خلدون والدرس اللغوي الحديث ، مجلة اللغة العربية ، المجلس الأعلى للغة العربية ، الجزائر عدد 8 ، 2003 ، ص 83 .

وإن كان المسدي يرى أن ظهور ابن خلدون لا يعد بمثابة الطفرة ، بل جاء في الوقت الذي كان يجب أن يظهر فيه ، لأن العلوم العربية الإسلامية تمخضت وتراكمت ووصلت معه إلى مرحلة قطف الثمار ، حيث يقول : »فإذا صح عندك ما افترضنا [...] تبين لك كيف أن ابن خلدون ما كان إلا ثمرا طبيعيا لنمط الحضارة التي أنشأته ، فالتكفير النقدي العربي توليدي كما عرفت ، فهو إذن مثمر خصيب وثمرته هي ابن خلدون « . قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون ، ص 158 .

4 ـ حسّان حلاق ، مقدمة في مناهج البحث التاريخي ، دار النهضة العربية ، بيروت 1986 ، ص 310 .

لقد كان ابن خلدون من ألمع الشخصيات العربية الإسلامية التي حظيت بمكانة متميزة عند المفكرين الغربيين والعرب ، بل ربما كان اهتمام الغرب بآرائه وأفكاره هو الذي دفع بالعرب إلى الاهتمام به. فلولا تحقيق الغرب لآثاره ونشرها وترجمتها إلى لغاتهم ما نال الحظوة التي نالها عند أهله من العرب [5] .

ولما كان اهتمام الغرب منصبا على الجوانب الفكرية والفلسفية والاجتماعية ، فقد أهملت آراؤه في المجال اللساني ، رغم أنها لا تقل أهمية عن غيرها من الآراء الخلدونية . وهذا ما حدا بي إلى محاولة إلقاء الضوء على تصنيفه لعلوم اللسان وتعريفه إياها في ضوء النظرية اللسانية المعاصرة، وعلاقة هذه العلوم بالنظرية الخلدونية العامة ، المتمثلة في علم العمران البشري ، كما جاء مبسوطا في المقدمة . لقد مثلت المقدمة » منظومة الفكر الأصولي المتكامل في مسار الحضارة العربية، وهذه المصادرة تستوجب التسليم بأن ابن خلدون ـ فضلا عن أنه فلسف علم التاريخ واشتق علم العمران ـ قد أمسك في مقدمته بأزمة مراتب أخرى تتداخل وتتفاعل إلى حد التراكب الكثيف فهو في المنزلة الأولى مؤرخ للعلوم ، وفي المنزلة الثانية ناقد لأصول العلوم ومناهجها وثمارها ، ثم هو في الثالثة منقّب عن خصائص المعرفة الإنسانية وكليات الإدراك البشري « [6] .

5 ـ انظر يسرى عبد الغني عبد الله ، معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 ، 1991 ، ص 74 (بتصرف).

6 ـ المسدي ، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون ، ص 163 .

يعد كتاب ابن خلدون مشروعا حياتيا ، قضى معظم فترات حياته في تأليفه ومراجعته، إذ استغرقت مدة كتابته أكثر من عشرين سنة ، حيث كتب المقدمة في أربعة أعوام [7] لما كان مقيما في قلعة ابن سلامة في غرب تلمسان (وهي تقع الآن قرب مدينة وهران) ، أما الأجزاء المتبقية فأكملها خلال إقامته بمصر ، التي بقي فيها حتى وافته المنية سنة 806 هـ (1406م) عن عمر يناهز ثمانية وسبعين سنة [8]. ورغم أن لسان بن الخطيب قد ذكر في ترجمة ابن خلدون (في كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة) مجموعة من الكتب قد ألفها ابن خلدون ، من بينها شرح البردة ، وتلخيص كثير من كتب ابن رشد ، وكتاب في الحساب ... [9] ، إلا أن ابن خلدون لم يشر إلى هذه المؤلفات حين ترجم لنفسه في كتاب مستقل في آخر كتاب العبر ، بعنوان : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا . وكأنه لا يراها ذات أهمية تذكر، لأنها قد تثنيه عن مشروعه المتمثل في كتاب " العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأعظم " .

7- وقد صرح هو نفسه بذلك .

8- جميل صليبا ، الموجز في تاريخ العلوم عند العرب ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط 3 ، 1981 ، ص 146.

9- المرجع نفسه ، ص 150 .

2 ـ علم العمران عند ابن خلدون :

يتمثل هذا المشروع في وضع كتاب يشتمل على ما يؤمن به من أفكار ومبادئ ، تتلخص في نظرية العمران ، التي يصرح بأنه هو الذي ابتكرها في قوله: «اعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة عزيز الفائدة أعثر عليه البحث وأدى إليه الغوص. [...] ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة ما أدري ألغفلتهم عن ذلك وليس الظن بهم ، أو لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل إلينا . [...] ونحن ألهمنا الله إلى ذلك إلهاما وأعثرنا على علم جعلنا بين نكرة وجهينة خبره. فإن كنت قد استوفيت مسائله وميزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاءه فتوفيق من الله وهداية ، وإن فاتني شيء في إحصائه واشتبهت بغيره فللناظر المحقق إصلاحه ، ولي الفضل لأنني نهجت له السبيل وأوضحت له الطريق والله يهدي بنوره من يشاء» [10] . وإن كان يعترف بأن بعضا من العلماء والحكماء من الفرس (الموذبان وأنوشروان) ومن اليونان (أرسطو) ومن العرب (ابن المقفع والطرطوشي) قد سبقه في التطرق إلى هذا الموضوع ، غير أن كتاباتهم لم ترق ـ في نظره ـ إلى مستوى نظريته من حيث دقة التناول وشمولية تحليل المسائل المتعلقة بالعوارض والأحوال التي تطرأ على العمران البشري والاجتماع الإنساني .

10 ـ المقدمة ، ص 44 .

ويرى أن موضوع الكتاب الذي ألف يتلخص في «وهذا هو غرض الكتاب الأول من تأليفنا، وكأنه علم مستقل بنفسه. فإنه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني، وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه به من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى. وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أو عقليا » [11] . فهذا التعريف الموجز يوضح بشكل صريح مفهوم العلم الذي سعى ابن خلدون إلى وضع أسسه ومعالمه في المقدمة، والذي أطلق عليه اسم علم العمران البشري.

فموضوع هذا العلم الذي هو العمران البشري بكل مظاهره المادية والمعنوية، الاجتماعية والسياسية والإيديولوجية والعلمية والعقدية، البدوية والحضرية ، اللغوية والبلاغية والأدبية ، ذلك أن البشر الذين ميزهم الله تعالى عن سائر المخلوقات بالعقل والفكر ، الذي يسمح لهم بتعلم العلوم والصنائع . لقد كانت طبيعة العيش البشر الاجتماعية ، والتساكن والتنازل في بلد ما أو حِلّة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات لنا في طباعهم من التعاون على المعاش مما تميز به بنو آدم عن الحيوانات. وقد قسم ابن خلدون العمران البشري إلى نوعين : عمران بدوي وعمران حضري ، حيث يتميز كل نوع منهما بخصائص تجعله يختلف عن الثاني. ولذلك فقد قسم وفق ذلك كتابه إلى ستة فصول ، جاءت موزعة كما يلي :

11 ـ المصدر نفسه ، ص 43 – 44 .

(المقدمة)

في كيفية نقل الخبر

الفصل الأول	الفصل الثاني	الفصل الثالث	الفصل الرابع	الفصل الخامس	الفصل السادس
العمران	العمران البدوي	الملك	العمران الحضري	المعاش والصنائع	العلم والتعليم

إن هذا الترتيب الذي اقترحه ابن خلدون لأبواب لم يكن عفويا ، ولا مجرد صدفة، بل كان مقصودا ، حيث يبرره المؤلف بقوله :« وقد قدمت العمران البدوي لأنه سابق على جميعها كما نبين لك بعد ، وكذا تقديم الملك على البلدان والأمصار. أما تقديم المعاش فلأن المعاش ضروري طبيعي وتعلم العلم كمالي أو حاجيّ، والطبيعي أقدم من الكمالي. وجعلت الصنائع مع الكسب لأنه منه ببعض الوجوه ومن العمران » . [12]

وقد جاء هذا الترتيب بشكل منطقي، وكأنه يتبع مبدأ النشوء والارتقاء ، إذ كل مستوى يتولد من المستوى الذي سبقه ، ويبدأ هذا الترتيب الهرمي من العمران البدوي الذي هو أصل كل أنواع العمران ، بالنظر إلى أنه أبسطها على الإطلاق، يليه الكلام عن نظام الملك

12 ـ المصدر نفسه ، ص 47 .

والحكم (السياسة) ، وهو باب يدور كله «حول موضوع السياسة ودورها في بناء العمران ، من خلال أطوار الدولة واختلاف أحوالها واختلاف أهلها باختلاف الأطوار ، سواء بالانتقال من البداوة إلى الحضارة أو من الحضارة إلى الهرم ، وإلى خراب العمران ، ليصل إلى نتيجة منطقية كانت منتظرة ، وهي أن العمران البشري لا بد له من سياسة ينتظم بها أمره» [13] ، ثم نجد المستوى الموالي المخصص للعمران الحضري ، الذي يرتكز عن المستوى السابق ، فبصلاحه يصلح العمران ، ذلك أن السياسة هي أساس الملك ودوام الحضارة والعمران. أما المستوى الخامس المخصص للمعاش والكسب والصنائع التي تكتمل باكتمال العمران الحضري وكثرته ، وهو ما يفسر حسب ـ ابن خلدون ـ أن العرب كانوا أبعد الناس عن الصنائع . ويبلغ تطور العمران الحضري أوجه من خلال أنماط العيش ، فينتقل إلى مرحلته الأخيرة ، مرحلة العلم ، تطبيقا لمبدأ " بداية الفكر نهاية العمل " ، التي تلخص بكيفية أخرى قانون النشوء والارتقاء [14]. ويمكن أن نبين هذا الترتيب الهرمي وفق المخطط التالي :

---

13 ـ محمد الصغير بناني ، البلاغة والعمران ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1996 ، ص 38 ـ39

14 ـ انظر : المرجع نفسه ، ص 40 . وأشار إليها الأستاذ عمار طالبي في مداخلة في ندوة حول " ابن خلدون والفكر العربي المعاصر "بتونس وتم طبع الأعمال سنة 1980 بالدار العربية للكتاب، وأطلق عليها اسم "النظرية الارتقائية".

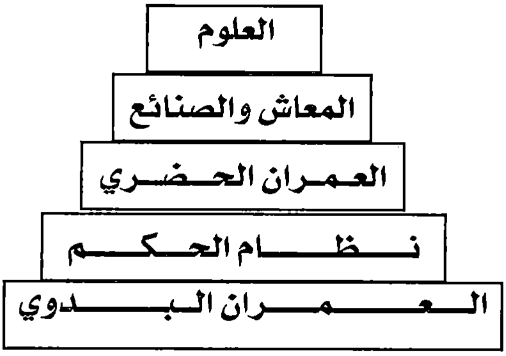

إن النظرة السريعة على عدد الصفحات التي اشتمل عليها كل فصل من فصول المقدمة تظهر لنا بشكل جلي الأهمية التي أولاها ابن خلدون للفصلين الثالث والسادس ، إذ جاءت كما يلي :

مقدمة	40 صفحة
الفصل الأول	80 صفحة
الفصل الثاني	30 صفحة
الفصل الثالث	168 صفحة
الفصل الرابع	32 صفحة
الفصل الخامس	45 صفحة
الفصل السادس	145 صفحة

فعدد الصفحات المرتفع بشكل لافت للانتباه في هذين الفصلين يبرز بلا شك الأهمية البالغة لموضوع الملك والعلوم في النظرية الخلدونية، غير أن الفصل السادس يعد أكبر الفصول حجما إذا ما أضفنا إليه ما جاء في الفصل الأول حول أصناف المدركين للغيب،

ذلك أنه يشكل المغزى الرئيسي في نظرية التطور العمراني في رأي ابن خلدون ، إذ أن موضوع هذا الفصل هو العلوم وما يتصل بها من القضايا الفكرية واللسانية ، التي ينتهي تطورها في "حال"[15] يعود الفضل في اكتشافه على خذا الوجه إلى ابن خلدون ، وهو ما يسميه بطرق التعليم . فالعلوم بوصفها عمرانا فكريا ولسانيا وفنيا ينتهي تطورها في صناعة الشعر، وبوصفها عمرانا صناعيا ينتهي تكورها في صناعة التعليم. وهاتان الصناعتان تأتيان في قمة الهرم وتشكلان أوج العمران وآخر ما يتجلى فيه قبل التطور النهائي ..

فالعلوم كما نرى معنيّة هي الأخرى بنظرية النشوء والارتقاء، ذلك أنه يعرض لها من الأحوال ـ حسب رأي ابن خلدون ـ ما يعرض غيرها من الكائنات، فهي تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة ، وينطوي بساطها لما يتناقص العمران ، ومن جهة أخرى فإن تعليم العلم يعدّ من جملة الصنائع التي تظهر وتحتفي بظهور العمران البشري واختفائه .

3 ـ علوم اللسان :

إن الحيرة الاصطلاحية التي لمسناها في الصفحات الأولى من كتاب دو سوسير، وهو يحاول تحديد موضوع اللسانيات (التي تسعى إلى أن تصبح علما)، حيث يميز بين ثلاثة مستويات هي:

15 ـ مصطلح الحال مصطلح خاص بابن خلدون ، ويدل على مرحلة من مراحل التطور العمراني .

langage - langue - parole، لا نجد لها أثرا عند ابن خلدون ، حين أراد أن يصنف علوم اللسان ، حيث يقول : « في علوم اللسان العربي: أركانه أربعة: وهي اللغة والنحو والبيان والأدب ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة» [16] . فاللسان ، في هذا التعريف يشمل موضوعات متنوعة، وتدخل في تكوينه عناصر مختلفة ، ولذلك فإننا نراه مقابلا لمصطلح سوسير langage ، الذي يعرفه صاحبه قائلا « اللغة واللسان عندنا ليسا بشيء واحد. فإنما هي في الآن نفسه نتاج اجتماعي لملكة الكلام ، ومجموعة من المواضعات يتبناها الكيان الاجتماعي ليمكّن الأفراد من ممارسة هذه الملكة . وإذا أخذنا اللسان جملة بدا لنا متعدد الأشكال متباين المقومات موزعا في الآن نفسه بين ميادين متعددة بما فيها الفيزيائي والفيزيولوجي والنفسي » [17] . أما اللغة فتقابل عند سوسير مصطلح langue ، الذي يعرفه قائلا : « أما اللغة فهي على عكس ذلك ، كل بذاته ومبدأ من مبادئ التبويب . وما إن نعطي اللغة المكانة الأولى ضمن أحداث اللسان ، حتى ندخل نظاما طبيعيا إلى مجموعة من الظواهر لا تسمح بأي نوع من التصنيف » [18] . ما نستشفه

16 ـ المصدر نفسه ، ص 500 .

17 - Ferdinand de Saussure, cours de linguistique générale, édition Payot, Paris 1974 , p. 25.

18 - Ibid, p. 25 -

اعتمدنا في هذا النص على ترجمة صالح القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عجينة لكتاب سوسير بعنوان : دروس في الألسنية العامة ، الدار العربية للكتاب ، تونس 1985 ، ص 29 . غير أنهم يترجمون مصطلح langage كلام ، ومصطلح parole لفظ . وقد أشرنا في محاضرة ألقيناها بسوسة (تونس) في شهر ديسمبر 2005 بملتقى حركية المصطلح الذي نظمته وحدة البحث " النقد ومصطلحاته " إلى الاختلاف الكبير في ترجمة مصطلحات سوسير بين اللسانيين العرب .

من هذه التعريفات التي جاء بها ابن خلدون وسوسير أن اللغة جزء من اللسان ، وأن اللسان أعم وأشمل منها ، إذ هي تدخل في تكوينه ، وإن كان عبد القادر المهيري يرى عكس ذلك ، إذ يعتقد أن ابن خلدون يستعمل مصطلح اللسان للإشارة إلى نظام علامي بعينه ، ومصطلح اللغة بمدلولات تختلف باختلاف السياق ، ولا يمكن أداؤها بمصطلح اللسان ، ومنها في المرتبة الأولى أداة التخاطب عامة بغض النظر عن كونها خاصة بقوم دون قوم [19] .

وإذا كان المصطلحان يتداخلان أحيانا في مقدمة ابن خلدون أو يترادفان ـ حسب رأي المهيري ـ فهذا ، راجع في نظرنا ، إلى التقارب الشديد في دلالتهما من جهة ، وإلى أن السياقات التي وردا فيهما لا يتطلبان الدقة الاصطلاحية العلمية . غير أن السياق الخلدوني الذي أوردناه فرض على ابن خلدون أن يميّز بينهما تمييزا علميا صارما ، إذ كان بصدد تصنيف العلوم اللسانية ، وهو موقف يتطلب من صاحبه أن يتحلى بالدقة والصرامة العلمية . أما المصطلح الثالث ، وهو مصطلح الكلام ، الذي يقابل مصطلح سوسير parole ، فقد جاء كذلك مطابقا في معناه للمعنى الذي قصده سوسير ، إذ يدل على الاستعمال الفردي للغة في المواقف التخاطبية المختلفة .

19 ـ عبد القادر المهيري ، نظرات في التراث اللغوي العربي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط 1 ، 1993 ، ص 187 .

ومن جهة أخرى ، فإن تصنيف ابن خلدون لعلوم اللسان يكاد يكون مطابقا لما نجده في اللسانيات المعاصرة ، حيث يرى ـ كما أسلفنا ـ أن أركانه أربعة هي : النحو واللغة والبيان والأدب ، ويتفرع كل ركن منها إلى مجموعة من الفروع لتكون شجرة علوم اللسان عنده كثيفة ، وافرة . ويرى ابن خلدون أن هذه الأركان متفاوتة في القيمة والرتبة بحسب دورها في تحصيل الملكة لدى المتكلم، حيث جاء ترتيبها كما يلي [20]:

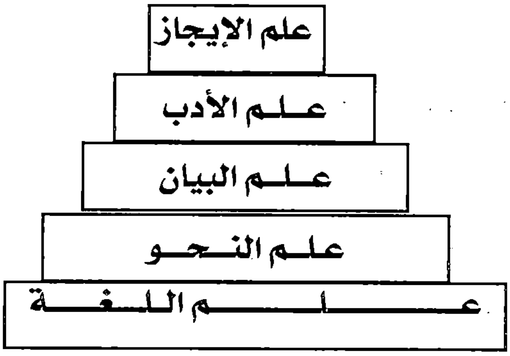

فعلم اللغة يأتي في المرتبة الأولى ، يليها علم النحو ، ثم علم البيان ، وعلم الأدب، ليختم الهرم في قمته بعلم الإعجاز القرآني وعلم الشريعة، ذلك أن الهدف الأسمى من اكتساب اللغة واستعمالها وحصول ملكتها هو فهم النص القرآني والأحاديث النبوية الشريفة واستنباط الأحكام الشرعية منهما، حيث يقول: « فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة. وتتفاوت في التأكيد بتفاوت مراتبها في

---

20 ـ هذا الشكل مأخوذ من : محمد الصغير بناني ، البلاغة والعمران عند ابن خلدون ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1996 ، ص 48 .

التوفية بمقصود الكلام » [21] . ويقصد بعلم اللغة صناعة المعاجم ، ويعني عنده « بيان الموضوعات اللغوية» [22] ، وكان سبب تأليف المعاجم - في رأيه - كثرة اللحن وفساد الملكة اللسانية وخشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث على حد قوله . أما علم النحو فقد ميز فيه تمييزا مستنيرا واعيا بين صناعة الإعراب لذاتها، وبين الملكة اللغوية التي ينبغي العمل من أجل تكوينها في لسان طالب العربية ، وعدم الانشغال بقوانين الإعراب المتشعبة ، التي لا طائل تحتها في الكتابة والتعبير والمعنى [23]. وهو يرى أن Å«صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة ، فهو علم بكيفية لا نفس الكيفية ، فليست نفس الملكة ، وإنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع ولا يحكمها عملا . فإن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل ، ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذوي مودة ، أو شكوى ظلامة ، أو قصد من قصوده أخطأ فيها عن الصواب أو أكثر من اللحن وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور، وهو لا يحسن إعراب الفاعل من

21 ـ ابن خلدون ، المقدمة ، ص 500 .

22 ـ المصدر نفسه، ص 502 .

23 ـ نايف معروف ، خصائص العربية وطرائق تدريسها ، دار النفائس بيروت 1985 ، ص 174 .

المفعول، ولا المفعول من المجرور ، ولا شيئا من قوانين صناعة الكتابة. من هذا تعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية ، وإنما هي مستغنية عنها بالجملة » . [24]

فالنحو عنده يجب أن يقتصر على القسط الذي يجعل المتعلم يحصّل الملكة اللسانية، لأنه وسيلة لا غاية ، يقول: « فأما العلوم التي هي مقاصد فلا حرج في توسعة الكلام فيها وتفريع المسائل واستكشاف الأدلة والأنظار، فإن ذلك يزيد طالبها تمكنا في ملكته وإيضاحا لمعانيها المقصودة . وأما العلوم التي هي آلة لغيرها ، مثل العربية والمنطق وأمثالها ، فلا ينبغي أن ينظر فيها إلا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط [...] فكلما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود وصار الاشتغال به لغوا، مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها « [25] .

أما علم البيان فيقصد به البلاغة، التي يرى أنها فرع من علم البيان في قوله: «فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث في هذه الدلالة التي للهيئات والأحوال والمقامات ، وجعل على ثلاثة أصناف: الصنف الأول يبحث فيه عن هذه الهيئات والأحوال التي تطابق باللفظ جمع مقتضيات الحال ، ويسمى علم البلاغة . والصنف

24 ـ ابن خلدون ، المقدمة ، ص 513 .

25 ـ المصدر نفسه ، ص 493 .

الثاني يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه وهي الاستعارة والكناية كما قلنا ، ويسمى علم البيان . وألحقوا بهما صنفا آخر وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق إما بسجع يفصله أو تجنيس يشابه بين ألفاظه أو ترصيع يقطع أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما وأمثال ذلك ، ويسمى عندهم علم البديع » [26] . أما علم الأدب فقد ميز فيه بين الشعر والنثر، وبيّن أن لكل واحد منهما خصائصه التي تميزه عن الآخر. وقد رأى أن «هذا العلم لا موضوع له ينظر في عوارضه أو نفيها . وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته ، وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم » . [27] كما يرى أن طريقة العرب في تعريف الشعر من حيث هو الكلام الموزون المقفى لا تقدم حدا ولا رسما لهذا الفن، إذ الشعر عنده «هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به » . [28] وهو تعريف شامل لكل ما يتميز به الشعر من حيث الشكل ومن حيث المعاني.

26 ـ المصدر نفسه ، ص 506 .

27 ـ المصدر نفسه ، ص 507 .

28 ـ المصدر نفسه ، ص 525 .

إن الذي يثير انتباهنا فعلا « أن الأصناف التي صنفها ابن خلدون تحت مصطلح علوم اللسان العربي هي عين ما نراه اليوم ونقف عليه في الدراسات اللغوية الغربية الحديثة »[29] وخير مثال على هذا التصنيف ما نجده في كتاب " المعجم الموسوعي لعلوم اللسان " (Le dictionnaire encyclopédique des sciences du langage)، حيث يشمل الموضوعات والفروع التالية :

- الباب الأول : المدارس اللسانية .

- الباب الثاني: الحقول (les domaines)، واشتمل على الموضوعات التالية :

مكونات الوصف اللساني، اللسانيات الجغرافية، علم الاجتماع اللساني، علم النفس اللساني، البلاغة والأسلوبية، الشعرية ، السيميائية، فلسفة اللغة .

- الباب الثالث: المفاهيم المنهجية (lesconcepts méthodologiques)، ويتناولان فيه :

الدليل، التركيب ونمطية الاستبدال، الفئات اللسانية، اللغة والكلام، المعيارية، الاعتباطية، الآنية والزمنية، تاريخ الأدب ، الأجناس الأدبية ، اكتساب اللغة ، علم أمراض الكلام .

- الباب الرابع : المفاهيم الوصفية (Les concepts descriptifs)، وفيه المواضيع التالية :

---

29 ـ عبد الجليل مرتاض ، ابن خلدون والدرس اللغوي الحديث ، ص 99 .

الوحدات الدالة ، النطق الصوتي اللساني ، نظم الشعر ، الكتابة ، أقسام الخطاب، الوظائف النحوية للشخصية ، القواعد التوليدية ، البنيات السطحية والبنيات العميقة، الإحالة تصنيف وقائع المعنى ، خطاب الخيال، العلاقات الدلالية بين الجمل، النص ، الأسلوب ، الزمن وكيفية اللغة ، زمن الخطاب ، التلفظ ، مقام الخطاب ، اللغة والفعل [30] .

إن الترتيب الهرمي السابق الذكر الذي قدم به ابن خلدون علوم اللسان نابع من قناعته المبدئية التي بنى عليها نظريته العامة في علم العمران ، الذي رأينا أنه اعتمد فيه على مبدأ النشوء والارتقاء ، إذ يرى أن أول ما ظهر هو علم اللغة (المعاجم) ، وتطور البحث اللساني إلى علم النحو ، الذي أدى تطوره بدوره إلى ظهور علم البيان (البلاغة) ، التي أدى تقدمها إلى ظهور علم الأدب ، وأخيرا علم الإعجاز . ويمكن أن نجري مقارنة بين الهرمين :

30ـ انظر :

Todorov et Ducrot, Le dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, éd du Seuil , Paris 1972.

علوم اللسان   علم العمران

الخاتمة :

وهكذا، نلاحظ أن ابن خلدون كان وفيا لنظريته وللمنهج العام الذي اتبعه منذ بداية تأليفه المقدمة، حيث كان التفكير اللساني عنده امتدادا لنظريته العامة في علم العمران، ذلك أن العلوم اللسانية التي هي جزء من العلوم عند العرب ، تتفرع هي بدورها وفق مبدأ النشوء (أو التدريج على حد قوله) من الأبسط إلى الأكثر تعقيدا ، مثل ما تطور العمران من الأبسط (العمران البدوي) إلى الأكثر تعقيدا (العلوم) .

ومن جهة أخرى، فإن نظرة ابن خلدون لعلوم اللسان، من حيث المصطلحات ومن حيث الفروع والمستويات هي نظرة علمية دقيقة تتقاطع بشكل لافت للانتباه مع نظرة اللسانيات الحديثة ، مما يجعلنا نعتقد أنه كان رجلا متميز تجاوز عصره بكثير ، وكأنه كان يملك نظرة استشرافية ، سواء فيما تعلق بنظرية العمران أو تفكيره اللساني .